الفصل الرابع
وسائل التربية النبوية

بَعَثَ اللهُ عز وجل نبيَّه محمداً ليهدي الناسَ إلى طريق الإسلام، وينقذهم من ظلمات الجهل إلى نور الدِّين، وأنزل القرآنَ الكريم هادياً إلى سُبُل السلام في الحياة كلها. قال عز وجل: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة: ١٥ ـ ١٦].

وقام ﷺ بالمهمة الملقاة على عاتقه خيرَ قيام، وربَّى الناس تربيةً دقيقة عميقة، فسما بنفوسهم نحو الكمال، وطهَّر قلوبهم من أمراض الجاهلية، فازدادوا رسوخاً في الدين. ونفوراً من عرامة الشهوات، فتفانوا في التضحية والبذل والعطاء، وحرصوا كل الحرص على التزوُّد من العلم والفقه ومحبة الله ورسوله، وطاعتهما في المنشط والمكره، فكان تأثيرُ الإيمان كبيرا في الأخلاق، والميول، والسلوك، وفي الإرادة والتصرف، وفي الروح والقلب؛ مما جعل المسلمين يعيشون تغييراً نفسياً ليس له مثيل، فانقلبت نفوسُهم بالإسلام انقلاباً حوَّل مجرى حياتهم بشكل مختلف، وبعلغل الإيمان في قيعان ضمائرهم، وتسرَّب في مشاعرهم وأفئدتهم، فغَمَر العقل والنفس بفيوضاتٍ جديدة، تجلَّت يقيناً صادقاً، وصبراً جميلاً، وشجاعة متألقة، وأخلاقاً متميزة، وأفعالاً مَرْضِيَّة.

واستطاعَ رسولُ الله ﷺ أن يُربِّي الناس في مدرسة النبوة تربية متكاملة،

خُلُقية ونفسية وعملية واجتماعية. . وكان الإيمانُ أقوى وازعٍ عن السقوط في الزلات الخُلُقية أو العَقَدية ، إلى جانب الشعور بالكرامة ، وعزَّة النفس ، فلا خضوع إلا لله عز وجل ، ولا عبودية إلاَّ له سُبحانه ، ومَنْ عَبَد مِنْ دونه إلهاً فهو من الخاسرين.

فعن أبي موسى الأشعري قال: انتهينا إلى النجاشي ، وهو جالس في مجلسه ، وعمرو بن العاص عن يمينه ، وعمارة بن الوليد عن يساره ، والقسِّيسون جلوس سماطَيْن[1]. وقد قال له عمرو وعمارة: إنهم لا يسجدون لك. فلما انتهينا بَدَرنا مَنْ عنده من القسِّيسين والرهبان: اسجدوا للملك ، فقال جعفر بن أبي طالب: لا نسجد إلا لله عز وجل[2].

وكان الإيمانُ رادعاً عن السقوط في الزلاَّت ، فإذا جمحت النفس ، وارتكبت ذنباً ، ولو كان في غياب الرقابة ، وبعيداً عن العيون ، فإن النفس المؤمنة تلوم صاحبها لوماً شديداً ، وتُعنِّفه تعنيفاً كبيراً ، وتُشْعِره بوَخْز الضمير ، فيندفع للاعتراف بذنبه ، ولو نالته العقوبة مهما بلغت شدَّتُها فعذاب الدنيا أهون من عقاب الله عز وجل.

عن عبد الله بن بُرَيْدَة ، عن أبيه: أنَّ ماعزَ بن مالك الأسلميَّ أتى النبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله ، إني قد ظلمتُ نفسي ، وزَنيتُ ، وإني أريدُ أن تُطهِّرني. فردَّه. فلما كان من الغد أتى فقال: يا رسولَ الله ، إني زنيتُ. فردَّه الثانية. فأرسل رسول الله ﷺ إلى قومه فقال: «أتعلمون بعقله بأساً تُنكرون منه شيئاً؟». فقالوا: ما نعلمه إلاَّ وفِيَّ العقل من صالحينا فيما نُرى. فأتاه الثالثة ، فأرسل إليهم أيضاً ، فسأل عنه ، فأخبروه: أنه لا بأس به ، ولا بعقله. فلما كان الرابعة: حَفَر له حفرةً ، فَرُجِم. فجاءت الغامديَّةُ فقالت: يارسولَ الله إني قد زنيت فطهرني. وإنه ردَّها فلما كان الغد قالت: يا رسول الله ، لِمَ تردّني؟! لعلَّك أنْ تردَّني كما رَدَدْتَ ماعزاً؟! فوالله؛ إني لحبلى. قال: «إمَّا لا ،

---

(١) «سماطين»: جمع سِماط ، وهو الصَّفُّ.

(٢) البداية والنهاية؛ لابن كثير (٣/ ٦٨).

فاذهبي حتى تلدي». فلما ولدتْ أَتَتْ بالصَّبي في خِرْقة. قالت: هذا قد ولدتهُ. قال: «اذهبي فأرضعيه حتى تَفْطميه». فلما فطمته أتته بالصَّبي في يده كسرةُ خبز، فقالت: هذا يا نبيَّ الله، قد فطمتهُ، وقد أكل الطعام. فدفعَ الصَّبيَّ إلى رجلٍ من المسلمين، ثم أمر بها فحُفِر لها إلى صدرها، وأمر الناسَ فرجموها. فَيُقْبِلُ خالد بن الوليد بحجرٍ، فرمى رأسَها، فَتَنَضَّحَ الدمُ على وَجْه خالد، فسبَّها، فسمع نبيُّ الله ﷺ سَبَّه إياها، فقال: «مَهْلاً يا خالد، فوالذي نفسي بيده، لقد تابتْ توبةً لو تابها صاحبُ مَكْسٍ لَغُفِر له». ثم أمر بها فصلَّى عليها، ودُفِنَتْ[1].

إنَّ امرأً يُقدِّم نفسه لينال عقوبةَ الموت، وكان بإمكانه أن يُنكر ما فعل، أو يتراجع عن اعترافه، فينجو من الموت المحقَّق، لكنه بدافع الإيمان، والوازع الديني يتحمَّل نتائج أعماله؛ لهو إنسانٌ قد تربَّى تربيةً خاصَّةً فريدة، قوامها الإرادة الصارمة، ومحاسبة النفس، والانتصاف منها في حال وقوعها في العثرات.

وإنَّ امرأً لا ينحني إلا لله ساجداً مطمئناً، ويرفع رأسَه عالياً، ويُقيم صفحة عُنُقه أمام ملك الحبشة، لهو إنسانٌ قد تلقَّى تربية ربانية، تستهينُ بمظاهر الدنيا، وزخارف المُلْك، ولا ترهبها وجوهُ الخَلْق مهما تجهَّمت، وقطَّبت حاجبَيْها.

أمَّا الشجاعة النادرة، والمسارعة إلى ساحات الكفاح؛ لإعلاء كلمة الدِّين، ونشر لواء التوحيد، فحدِّثْ ولا حرج... فقد تجلَّت الاستهانة بالحياة زمن الصحابة والتابعين، وتمثَّلتْ لهم الآخرة، فكأنهم يرونها بأم أعينهم، ويتحسَّسونها بأناملهم.

---

(١) رواه مسلم (١٦٩٥/ ٢٣) وأبو داود (٤٤٤٢) والنسائي في السنن الكبرى (٧١٦٧).
«تنضَّح الدم»: تطاير متفرقاً. «مهلاً يا خالد»: كُفَّ عن سَبِّها. «صاحب مكس»: هو الذي يأخذ من الناس ما لا يلزمهم شرعاً من الواجبات المالية بالقهر والجَبْر.

عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس ، عن أبيه ، قال: سمعتُ أبي ، وهو بحضرة العدو ، يقول: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ أبواب الجنة تحت ظِلال السيوف». فقام رجلٌ رَثُّ الهيئة فقال: يا أبا موسى ، أنتَ سمعتَ رسولَ الله ﷺ يقولُ هذا؟ قال: نعم ، قال: فرجع إلى أصحابه ، وقال: أقرأ عليكم السلام ، ثم كَسَر جَفْنَ سيفه فألقاه ، ثم مَشَى بسيفه إلى العدو؛ فضرب به حتى قُتِل[1].

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: عَمِّي سُمِّيتُ به ، لم يشهدْ مع رسول الله ﷺ بَدْراً ، فشقَّ عليه. وقال: أوَّلُ مَشْهدٍ شهده رسولُ الله ﷺ غُيِّبْتُ عنه ، فإنْ أراني اللهُ مشهداً فيما بعدُ مع رسول الله ﷺ فَلَيَرَيَنَّ اللهُ ما أصنع. قال: فهاب أن يقولَ غيرَها. فَشَهِد مع رسول الله ﷺ يومَ أُحُد ، فاستقبل سعدُ بنُ معاذ ، فقال له أنس: يا أبا عمرو ، أين؟ فقال: واهاً لريح الجنة أَجِدُه دون أُحُد. فقاتلهم حتى قُتِل ، فَوُجِد في جسده بضعٌ وثمانون ما بين ضربةٍ وطعنةٍ ورَمْية ، فقالتْ أختهُ عمَّتي الرُّبَيِّعُ بنتُ النَّضر: فما عرفتُ أخي إلا بِبَنَانِهِ. ونزلتْ هذه الآيةُ: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ...﴾ [الأحزاب: ٢٣][2].

وبهذا الإيمان العميق ، والاندفاع اللامحدود ، بزغت شمسُ التربية النبوية في عالم الصحابة ، فتخرج أولئك الأفذاذ ذخائر بشرية يُشار إليها بالبنان ، بعد أن انبعثتْ فيها روحُ الإسلام ، فأثارت دفائنها ، وأجَّجت مواهبها ، فامتشقت سيفَ الكرامة والعلم والفقه ، وأحيت النفوس ، وأَمْلَتْ على الدنيا كتابَ الحياة ، بعد أن كان الناسُ أجساماً نامية ، ونفوساً جامدة.

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٣٩٦) ومسلم (١٩٠٢) والترمذي (١٦٥٩).
«جَفْن سيفه»: غِمْده.

(٢) رواه مسلم (٩٠٣) والترمذي (٣١٩٨ و٣١٩٩).
«واهاً لريح الجنة»: أي: عجباً منه. «ببنانه»: بأصابعه. «قضى نحبه»: قضى أجله على ما عاهد عليه.

قال عز وجل: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وقد اتَّبع رسولُ الله ﷺ وسائلَ كثيرة؛ حتى استطاع أن يُفجِّر كوامن المؤمنين، ويجعل الريَّ يسقي الأرضَ العطشى ماءً سلسبيلاً، عَذْباً، فراتاً، فكانت الثمارُ ناضجة يانعة، آتتْ أفضل الغلال عبر الأيام.

وكان ﷺ كالطبيب، يُشخِّص الداء، ويصف له الدواء المناسب الناجع، فاستطاع أن يربِّي أمة، ويُوجِّه الناس، ويرشد المؤمنين، بالكلمة الطيبة، والموعظة الحسنة، والقدوة الصالحة.

ويمكنُ أن نشيرَ إلى أهم تلك الوسائل التربوية؛ التي استخدمها النبيُّ ﷺ في تربيته؛ ومنها:

أ ـ القدوة الحسنة، والأسوة الصالحة في الأقوال والأعمال:

وهذه الوسيلة تأتي في قمَّة الوسائل التربوية، وأهمها على الإطلاق؛ لأنها تربية بالعمل والواقع والمثال الحي المشاهَد. وقد كان ﷺ القدوة الصالحة في كل بِرّ، وطاعة، وخير، وإحسان، وصلاح، ومكرمة، وكان رائداً في كل مجال، وسيرتُه النبوية عَطِرة بالقول الصائب، والعلم البارّ، والمشاركة الوجدانية للصحابة ـ رضي الله عنهم ـ.

قال الله عز وجل: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

ووردتْ هذه الآية في سياق الحديث عن غزوة الأحزاب، حيث خرجتْ جموعُ المشركين تريد القضاءَ على المسلمين، فلما سمع رسولُ الله ﷺ بأمرهم، أَمَر بحفر الخندق حول المدينة، وعمل فيه مع الصحابة يداً بيد، ومعولاً بمعول.

وجاءت الجموعُ الحاشدة الحاقدة، وضربت معسكرها حول المسلمين، فالمشركون يحاصرون المدينة، والمنافقون واليهود ينصبون شباكَ التآمر

داخل المدينة ، حتى اشتدَّ الأمرُ على المسلمين ، وعظم الخوف ، وزُلْزِل الناسُ زلزالاً كبيراً ، حتى ضاقتْ عليهم الأرضُ بما رحبت. واستمر هذا الأمرُ قرابةَ شهر ، وكانت النتيجة أن خذل اللهُ المشركين ، وردَّهم بغيظهم لم ينالوا خيراً.

وعلى الرغم مما أصاب المسلمين في غزوة الأحزاب من الهول والضيق والرعب ، فإنَّ رسولَ الله ﷺ كان ملاذاً آمناً لهم ، ومنبعاً للثقة ، ومصدراً للاطمئنان ، فقد كان مع الصحابة في كل موقف ، ضَرَب بالفأس ، وجَرَف بالمسحاة ، وحَمَل التراب في المكتل.

قال ابنُ إسحاق: وعمل المسلمون فيه حتى أحكموه ، وارتجزوا فيه برجُلٍ من المسلمين ، يُقال له جُعَيْل ، سمَّاه رسول الله ﷺ عَمْراً ، فقالوا:

سَمَّـاه مِـنْ بَعـد جُعَيْـل عَمْـرا وكـان للبـائـس يـومـاً ظَهْـرَا

فإذا مرُّوا بـ(عمرا) قال رسولُ الله ﷺ: عَمْرا ، وإذا مرُّوا بـ(ظهرا) قال رسول الله ﷺ ظَهْرا[1]. فشارك ﷺ المرتجزين في الترجيع ، إذ ردَّد أواخر البيت.

كما شارك رسولُ الله ﷺ الصحابة بقوله في غزوة الأحزاب ، فكانت كلماته تنساب في النفوس رضاً ، واستبشاراً ، وتضيء قلوبهم بمزيدٍ من العمل والدأب والصبر العنيد.

قال ابنُ إسحاق: وحُدِّثْتُ عن سلمان الفارسي أنه قال: ضربتُ في ناحيةٍ من الخندق ، فَغَلُظَتْ عليَّ صخرةٌ ، ورسولُ الله ﷺ قريبٌ مني؛ فلما رآني أضربُ ، ورأى شدَّة المكان عليَّ ، نَزَل فأخذ المعولَ من يدي ، فضرب به ضربةً لمعتْ تحت المعول برقةٌ ، ثم ضرب به ضربةً أخرى ، فلمعتْ تحته برقة أخرى ، ثم ضَرَب به الثالثة ، فلمعتْ تحته برقةٌ أخرى.

---

(١) السيرة النبوية (٢/ ٢١٧).
«ظهراً»: قوة ومنعة.

قال سلمان: قلتُ: بأبي أنتَ وأمي يا رسولَ الله ، ما هذا الذي رأيتُ تحت المِعْوَل وأنت تضرب؟ قال: «أَوَقَدْ رأيتَ ذلك يا سَلْمان؟!». قال: قلتُ: نعم. قال: «أمَّا الأولى فإنَّ اللهَ فَتَحَ عليَّ بها اليمن ، وأمَّا الثانية فإنَّ اللهَ فَتَح عليَّ بها الشام والمغرب ، وأمَّا الثالثة فإنَّ اللهَ فَتَح عليَّ بها المشرق»[1].

ولمَّا عاد حذيفةُ بن اليَمَان من استطلاع خبر المشركين في غزوة الأحزاب ، وَجَد رسولَ الله ﷺ يصلي ، فقال: رجعتُ إلى رسول الله ﷺ وهو قائمٌ يصلي في مِرْطٍ[2] لبعض نسائه ، مراجل[3]. فلما رآني أدخلني إلى رِجْلَيْه ، وطَرَح عليَّ طَرَفَ المِرْط ، ثم ركع وسجد ، وإني لَفِيه ، فلما سلَّم أخبرتُه الخبر[4].

فلم يتركْ ﷺ حذيفةَ يرتعش من البرد ، بل أدفأه بكلِّ حنان وشفقة.

ونبَّه ﷺ الصحابة إلى ضرورة الاقتداء به ، وأَخْذ العبادات عنه ، وتمثُّلها كما يُؤدِّيها ، فقال عليه الصلاةُ والسلام: «صلُّوا كما رأيتموني أُصلِّي»[5]. وقال أيضاً: «خُذُوا عني مناسككم»[6].

وكان ﷺ قدوةً حسنة في كل خُلُق ، وصِفَة ، وأَدَب... فكلُّ حليم عُرِفتْ له سقطة أو هفوة ، لكنه ﷺ ما كانت كثرةُ الأذى من قِبَل الضالين تزيده إلا صَبْراً وثباتاً ويقيناً ، وحلماً على الجاهل ، وصفحاً عن المؤذي.

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: ما رأيتُ رسولَ الله ﷺ مُنتصراً من

---

(١) السيرة النبوية؛ لابن هشام (٢/ ٢١٩).
(٢) «مِرط»: كساء.
(٣) «مراجل»: نوع من وشي اليمن.
(٤) السيرة النبوية؛ لابن هشام (٢/ ٢٣٣).
(٥) رواه البخاري (٦٣١) ومسلم (٦٧٤).
(٦) رواه أحمد (٣/ ٣١٨) والنسائي (٥/ ٢٧٠).

مَظْلَمةٍ ظُلمها قطُّ؛ ما لم تُنتهك حرمةٌ من مَحَارم الله ، وما ضَرَب بيده شيئاً قطُّ إلا أن يُجاهد في سبيل الله ، وما ضَرَب خادماً ، ولا امرأة[1].

وجيء إليه برجل ، فقيل: لقد أراد أن يقتلَك ، فقال ﷺ: «لن تُراع ، لن تُراع. ولو أردتَ ذلك لم تُسَلَّطْ عليَّ»[2].

ومَنْ لا يذكر إساءة مشركي مكة للنبي وصحبه؟! ومع ذلك أبدى لهم قمة الحلم ، وعظمة الخُلُق النبوي ، وعندما فَتَح اللهُ عليه ذلك البلد ، قال مخاطباً لهم: «ما تقولون أني فاعلٌ بكم؟». قالوا: خيراً ، أخٌ كريم ، وابنُ أخ كريم. فقال: «أقولُ كما قال أخي يوسف: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢] اذْهَبُوا فأنتم الطُّلَقَاءُ»[3].

أمَّا جوده ﷺ وكرمه وسخاؤه وسماحته العظيمة ، فكانت لا تُوازى ولا تُضاهى ولا تُبارى ، ومنها اقتبس المسلمون مفهوم الكرم ، فنعمت التربية ، ورضي الله عن المتعلِّمين.

فعن أنس ـ رضي الله عنه ـ: أن رجلاً سألَ رسولَ الله ﷺ ، فأعطاه غَنَماً بين جبَلَيْن ، فرجع إلى قومه ، قال: أَسْلِمُوا؛ فإنَّ محمداً يُعْطي عَطَاءَ مَنْ لا يخشى الفقر[4].

وشَهِد الأعداءُ بتفوُّق رسول الله ﷺ في كل ميدان ، وها هو النَّضْر بن الحارث ـ أشدّ القرشيين عداوةً للنبي ﷺ ـ يقول لمشركي قريش: قد كان فيكم محمد وهو غلامٌ حَدَث؛ أرضاكم خُلُقاً ، وأصدقكم حديثاً ، وأعظمكم

---

(١) رواه البخاري (٣٥٦٠) ومسلم (٢٣٢٧ و٢٣٢٨).
(٢) ذكره القاضي عياض في كتابه «الشفا» (١/ ٢٢٦).
«لا تراع»: لا تخف.
(٣) رواه البيهقي في دلائل النبوة (٥/ ٢٨).
(٤) رواه أحمد (٣/ ١٠٨) ومسلم (٢٣١٢).

أمانة ، حتى إذا رأيتم في صِدْغَيْه الشَّيْب ، وجاءكم بما جاءكم به قلتم: ساحر ، لا واللهِ ، ما هو بساحر.

ب ـ الطريقة التعليمية المباشرة والاستنتاجية والاستقرائية:

اتَّبع رسولُ الله ﷺ أكثر من طريقة لتعليم الناس ، وتربيتهم ، وإيصال المعلومة إليهم؛ مِنْ أجل تنفيذها واقعاً عملياً ملموساً. ونستطيع أن نشير إلى ثلاث طرائق ، فالأولى: الطريقة التقريرية ، وتقوم هذه الطريقة على التعليم المباشر ، حيث ينتقل الفكرُ من الحقيقة العامة إلى الحقائق الجزئية ، ومن القانون العام إلى الحالات الخاصة ، ومن الكلي إلى الجزئي ، ومن المبادىء إلى النتائج. وهي طريقة سهلة ، سريعة الأداء ، تُقدِّم المعلومات عن طريق التلقين. وهي تصلح للصغار خاصة. والأمثلة عليها كثيرة ، منها:

ـ «يا غلام ، سَمِّ الله ، وكُلْ بيمينك ، وكُلْ مِمَّا يليك»[1].

ـ «يا غلام ، إني أُعلِّمك كلمات: احْفَظِ الله يحفظْك. احْفَظِ اللهَ تجدْه تجاهك. إذا سألتَ فاسألِ الله ، وإذا استعنتَ فاستعنْ بالله. واعلمْ أنَّ الأمة لو اجتمعتْ على أنْ ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كَتَبه اللهُ لك ، ولو اجتمعوا على أن يَضُرُّوك بشيء لم يضرُّوك إلا بشيء قد كتبه اللهُ عليك ، رُفِعَتِ الأقلامُ ، وجَفَّتِ الصُّحَفُ»[2].

ـ «يا أهلَ القرآن أَوْتِرُوا؛ فإنَّ اللهَ وِتْرٌ يُحبُّ الوِتْر»[3].

ـ «يا أيُّها الناس ، تُوبُوا إلى الله قبل أن تموتوا ، وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تُشْغَلُوا ، وصِلُوا الذي بينكم وبين ربكم بكثرةِ ذِكْرِكم له ،

---

(١) رواه مسلم (٢٣٦٣).
(٢) رواه الترمذي (٢٥١٦).
(٣) رواه أبو داود (١٤١٦).

وكثرةِ الصَّدقة في السر والعلانية تُـرْزَقُـوا ، وتُـنْصَرُوا ، وتُـجْبَرُوا. واعْلَمُوا أنَّ الله افترضَ عليكمُ الجمعةَ»[1].

ـ «يا عائشة ، اسْتَتِرِي من النار؛ ولو بِشِقِّ تَمْرة؛ فإنَّها تَسُدُّ من الجائع مَسَدَّها من الشَّبْعان»[2].

ـ «يا كَعْب بن عُجْرة ، الصَّلاةُ قُرْبان ، والصيامُ جُنَّة ، والصَّدَقَةُ تُطْفِىء الخطيئة كما يُطْفىء الماءُ النارَ. يا كعب بن عُجْرة ، الناسُ غاديان ، فبائعٌ نَفْسَه فموبِقٌ رَقَبَتَهُ ، ومُبْتَاع نَفْسَه في عِتْق رقبته»[3].

ـ «يا كعب ، إذا كنتَ في المسجد فلا تُشَبِّكَنَّ بين أصابِعك ، فأنتَ في صلاة ما انتظَرْتَ الصلاة»[4].

ـ «يا معاذ ، أَحْسِنْ خُلُقَكَ للناس»[5].

ـ «يـا معشـر المسلميـن ، لا صـلاةَ لمـن لا يُقيـمُ صُلْبَـهُ فـي الـركـوع والسُّجود»[6].

وهذه الطريقة جيدة ، تعتمد على الحفظ ، والتذكُّر عند اللزوم ، وتقوم التربية من خلال التلقين بتدريب العقول ، وشحذها بجمع المعلومات المجرَّدة ، إلى جانب القدرة الفذَّة لرسول الله ﷺ في التأثير من خلال الإلقاء الشخصي ، فيهب الموقف حياةً ونشاطاً؛ حيث تتحفز المشاعر ، وتستعدّ القوى النفسية لتلقّي المعلومات من أجل التنفيذ في حيِّز الواقع.

---

(١) رواه ابن ماجه (١٠٨١) والأصبهاني في الترغيب والترهيب (٩١٧).
(٢) رواه أحمد (٦/ ٧٩) وانظره في مجمع الزوائد (٣/ ١٠٥).
(٣) رواه أحمد (٣/ ٣٢١ و٣٩٩) والحاكم (٤/ ٤٢٢) وأبو يعلى (٣/ ١٩٩٩).
«جُنَّة»: وقاية.
(٤) رواه أحمد (٤/ ٢٤٣).
(٥) رواه مالك في الموطأ (٢/ ٩٠٢).
(٦) رواه أحمـد (٤/ ٢٣) وابـن مـاجه (٨٧١) وابـن خـزيمـة (١/ ٣٣٣) وابـن حبـان (١٨٨٨).

كما استخدم رسولُ الله ﷺ الطريقة الاستنتاجية في التربية والتعليم، وهي البدءُ بسؤالٍ يسترعي الانتباه، ويثير الاهتمام؛ لترسيخ الحكم المطلوب إيراده وتعزيزه في نفس السامع.

فعن الحارث بن عمرو، عن رجالٍ من أصحاب معاذ: أنَّ رسولَ الله ﷺ بَعَث معاذاً إلى اليمن، فقال: «كيف تقضي؟» فقال: أقضي بما في كتاب الله. قال: «فإنْ لم يكنْ في كتاب الله؟!» قال: فبسُنَّة رسول الله ﷺ. قال: «فإن لم يكنْ في سُـنَّـة رسول الله ﷺ؟!». قال: أجتهد رأيي. قال: «الحمدُ لله الذي وَفَّـق رسولَ رسولِ الله ﷺ»[1].

وعن المغيرة بن عبد الله الجُعْفي قال: جَلَسْنا إلى رجل من أصحاب النبي ﷺ يقال له خَصْفَة بن خَصْفَة، فجعل ينظرُ إلى رجل سمين، فقلتُ له: ما تنظرُ إليه؟ فقال: ذكرتُ حديثاً سمعتهُ من رسول الله ﷺ، سمعتُه يقول: «هل تدرون ما الشديد؟» قلنا: الرجلُ يَصْرَعُ الرجل. قال: «إن الشديدَ كلَّ الشديد الذي يملك نَفْسَه عند الغضب. تَدْرُون ما الرَّقُوبْ؟» قلنا: الرجلُ الذي لا يُولدُ له. قال: «إنَّ الرقوبَ الرجلُ الذي له الولد، لم يُقَدِّمْ منهم شيئاً». ثم قال: «تدرون ما الصُّعْلُوك؟» قال: قلنا: الرجلُ الذي لا مالَ له. قال: «إنَّ الصُّعْلُوكَ كُلَّ الصُّعْلوك الذي له المال لم يُقَدِّمْ منه شيئاً»[2].

فأراد ﷺ عن طريق طَرْح السؤال؛ استخراجَ ما في نفوس السامعين من معلومات ومعارف، فلما تبيَّن أنها تدلُّ على حقيقة الأمر، علَّمهم دقة التفكير، وعُمْق التأمل؛ وصولا إلى استخراج الحقائق، وردّ الأمور إلى كُنْهها وقرارها. واستخدم أسلوبَ السؤال ليثير مزيدا من الاهتمام والنشاط والحيوية في التفكير ولَفْت الانتباه.

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٢٣٠) وأبو داود (٣٥٩٢) والترمذي (١٣٢٧).

(٢) رواه أحمد (٥/ ٣٦٧) والبيهقي في شعب الإيمان (٣٣٤١) وانظره في مجمع الزوائد (٣/ ١١) والإصابة ترجمة (٢٢٦٨).

كذلك استخدم ﷺ ما يُسمَّى بالطريقة الاستقرائية ، حيث يتمُّ الانتقال من الجزئي إلى الكلي ، ومن الخاص إلى العام ، ومن المعلوم إلى المجهول. وهي طريقة حسنة؛ إذ تشجِّع المتعلِّمين على التفكير المنظَّم ، واستنباط المعلومات ، ومعرفة الحقائق دون تعجُّل.

ومن الأمثلة على هذه الطريقة ما رواه أبو أُمامة قال: إنَّ فتى شابّاً أتى النَّبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله ، ائذنْ لي بالزنى. فأقبلَ القومُ عليه ، فزجروه ، وقالوا: مَـهْ ، مَـهْ. فقال: «ادنه». فدنا منه قريباً ، قال: فجلس. قال: «أتحبُّه لأمك؟» قال: لا ، واللهِ ، جَعَلني اللهُ فِداءك. قال: «ولا النَّاسُ يحبُّـونه لأُمَّهاتهم». قال: «أفتحبُّه لابنتك؟» قال: لا ، واللهِ ، يا رسول الله ، جَعَلني اللهُ فداءك. قال: «ولا الناس يحبونه لبناتهم». قال: «أفتحبُّه لأختك؟» قال: لا ، واللهِ ، جَعَلني اللهُ فداءك. قال: «ولا الناس يحبونه لأخواتهم». قال: «أفتحبُّه لعمتك؟» قال: لا ، واللهِ ، جَعَلني اللهُ فداءك. قال: «ولا الناسُ يحبُّونه لعمَّاتهم». قال: «أفتحبُّه لخالتك؟» قال: لا ، واللهِ ، جَعَـلني اللهُ فداءك. قال: «ولا الناسُ يُحبُّونه لخالاتهم». قال: فوضع يدَه عليه ، وقال: «اللهم اغفرْ ذَنْـبَـهُ ، وطَهِّرْ قَـلْـبَـهُ ، وحَصِّنْ فَـرْجَـهُ». فلم يكنِ الفتى بعد ذلك يلتفتُ إلى شيء[1].

وأراد ﷺ أن يحثَّ الناسَ على تقديم ما يُمكن تقديمه من المال في وجوه البِرِّ والقربة؛ لينتفع به في الآخرة ، فإن كلَّ شيء يُخلِّفه الموروثُ يصيرُ ملكاً للوارث ، فإنْ عمل فيه بطاعة الله ، اختصَّ بثواب ذلك ، وكان الأول هو الذي تعب في جَمْعه ومَنْعه ، وإنْ عمل فيه بمعصية الله ، فذاك أبعدُ لمالكه الأول من الانتفاع به إنْ سلم من تبعته[2].

فعن عبد الله بن مسعود قال: قال النبيُّ ﷺ: «أيُّكم مالُ وارِثه أحبُّ إليه

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٢٥٧) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٢٩).
(٢) فتح الباري (١١/ ٢٦٠).

من ماله؟» قالوا: يا رسولَ الله ، ما مِنَّا أحدٌ إلا مالُه أحبُّ إليه. قال: «فإنَّ مالَهُ ما قدَّم ، ومالُ وارثه ما أخَّر»[1].

وهذه الطريقة الاستقرائية تثير قوة التفكير ، وتأخذ بأيدي المتعلِّمين شيئاً شيئاً حتى يصلوا إلى الحقيقة[2].

كما أنها تُحرِّك الدوافعَ النفسية لدى المتعلِّم ، فيهتم اهتماماً بالغاً ، فينتبه ، ويفكِّر ، ويعمل[3].

ج ـ الطريقة التعليمية غير المباشرة:

إنَّ الإنسانَ قد يُصاب بفترات وهن وضعف ، فيحسُّ بالكآبة تنتابه من كل جانب ، ويعتصره الهمُّ ، فلا يُبقي له مجالاً للتفكير ، ويحارُ في أمره ، ويُفتِّش عن الحلول الحاسمة ، فلا يجد المفتاحَ المناسب.

وفي هذه القضية لا بُدَّ من إيجاد مخرجٍ سليم؛ للتغلُّب على المشكلة الطارئة ، ورَسْم منهاجٍ جديد لتهدأ النفس ، وتستمر في رحلة العمل والعطاء.

إنَّ مثل هذه الحالة حدثتْ زمنَ رسول الله ﷺ ، فعن أبي سعيد الخدري قال: دخل رسولُ الله ﷺ ذات يومٍ المسجد ، فإذا هو برجلٍ من الأنصار ، يُقال له أبو أمامة ، فقال: «يا أبا أمامة ، مالي أراكَ جالساً في المسجد في غير وقت الصلاة؟!» قال: همومٌ لزمتني وديونٌ يا رسولَ الله. قال: «أَفَلا أُعلِّمك كلاماً إذا قُلْتَهُ أذهب اللهُ عز وجلَّ هَمَّك ، وقضى عنك دَيْنَك؟!» قال: قلتُ: بلى يا رسول الله. قال: «قل إذا أصبحتَ وإذا أمسيت: اللهم إنِّي أعوذ بك من الهمِّ والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الجُبْن

---

(١) رواه أحمد (١/ ٣٨٢) والبخاري (٦٤٤٢) والنسائي (٦/ ٢٣٧ ـ ٢٣٨).
«ما قدّم»: أي: في حياته. «ما أخّر»: أي بعد موته.

(٢) علم النفس وآثاره في التربية والتعليم؛ لعلي الجارم ومصطفى أمين (٢١٦).

(٣) التربية وطرق التدريس ، لحسن الحريري وآخرين (٩٣).

والبخل ، وأعوذ بك من غلبة الدَّيْن وقَهْر الرِّجال». قال: ففعلتُ ذلك ، فأذهب اللهُ عز وجل هَمِّي ، وقَضَى عنِّي دَيْني[1].

ولا يُفْهَمُ من الحديث أنَّ أبا أمامة ظلَّ رافعاً يديه يدعو حتى قُضِي دَيْنُه ، أو أنه اكتفى بالاستعاذة وقبع في زاوية البيت أو المسجد متواكلاً. فالإسلام يحارب البطالة ، ويشحن الأوقات بالواجبات ، ويدعو للعمل والإنتاج والإتقان ، ويجعل العملَ يطرد القلق ، ويسدُّ ثغرات الفراغ.

بَيْدَ أنَّ الإسلامَ يربطُ المؤمنَ بالله المهيمن على الكون؛ ليسألَه بضراعة ، وليستعين بالله سُبحانه على مواجهة معاناة الحياة ومشقَّاتها. فالضراعة والاستعاذة تزيد من قوة الإنسان الروحية ، وتنمِّي نشاطه ، مما يعودُ عليه بأفضل النتائج؛ عندما ينطلقُ من جديد في رحاب الحياة ، يعمل ، ويصنع ، ويتاجر ، ويتعلَّم... فإذا بالضراعة تربِّي النفس ، وإذا بالسعي يسدُّ الحاجة ، ويزيد في الإنتاج.

وكأنَّ رسولَ الله ﷺ يريد أن يقولَ لأبي أُمامة: وهل يُذْهِبُ جلوسُك في المسجد في غير وقت الصلاة همومَك؟! أو يقضي دَيْنك؟! ومِنَ الكسل والخمول والجُبْن والعجز أن تترك البحثَ عن عملٍ مشروع ، وكَسْبٍ حلال ، تسدُّ به دَيْنَك؛ فينفرج هَمُّك.

ولو قال له ذلك لنفَّره ، وجَرَح شعوره ، ولكن رسول الله ﷺ ربَّاه تربية غير مباشرة ، فدعاه إلى الاتصال بالله ، والاستعاذة من الكسل وما يجرُّ إليه ، ففهم أبو أُمامة أن الرسولَ ﷺ يدعوه إلى البحث عن عملٍ بطريقةٍ غير مباشرة ، انطوتْ في دعاءٍ جميل يدعو به ربَّه ، فسارع أبو أُمامة إلى أن يكسبَ من عرق جبينه ، وكدِّ يمينه ، فرزقه اللهُ تعالى من ذلك رِزْقاً قضى به ديونه ، وعاش مكتفياً مسروراً ، لا يحتاجُ أن يسألَ الناسَ أعطوه ، أو منعوه[2].

---

(١) رواه أبو داود (١٥٥٥).

(٢) الأطفال بهجة الحياة وأمل المستقبل؛ لهشام الحمصي (١٧ ـ ١٨).

د ـ التربية العملية الواقعية:

تتَّصف التربيةُ النبوية بأنها عملية ، تعالج المشكلات القائمة في الواقع بروح الإسلام. ونشاطُ الأفراد لا يقتصر على استقدام الخير لأنفسهم ، بل يمتدُّ ذلك النشاط ليساعد الآخرين ، ويُواسيهم بالأعمال الجليلة ، والأخلاق الماجدة.

عن أبي موسى: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «على كُلِّ مسلم صدقة» قيل: أرأيتَ إنْ لم يجدْ؟ قال: «يَعْتَمِلُ بيديه ، فينفعُ نَفْسَه ويتصدَّق». قيل: أرأيتَ إنْ لم يستطع؟ قال: «يُعينُ ذا الحاجة الملهوف». قيل: أرأيت إنْ لم يستطع؟ قال: «يأمر بالمعروف». قيل: أرأيتَ إنْ لم يفعلْ؟ قال: «يُمْسِكُ عن الشر؛ فإنها صدقة»[1].

فَمَنْ لم يستطع أن ينفع الآخرين ، أو يساعدهم ، فليلزم خاصَّة نفسه ، ويترك الأذى والشر ، ويتمسَّك بذلك لعلَّه ينجو يوم القيامة.

إن معالم السلوك في الإسلام عملية ، نلمسُ فيها المروءة، ونُبْل الخِصال ، وكرم الخِلال ، والتربية النبوية تدفعُ المرءَ ليؤدي رسالته في الحياة ، فهو ليس عضواً أشلَّ ، ولا امرأً فاسِداً ، بل ينفع نفسه ، ويحبُّ النفعَ للآخرين ، ويُحقِّق الصالح العام ، ويودُّ نجاحَ المقاصد ، وتجسيد السعادة.

ومن هنا لفتتِ التربية النبوية بوسيلة عملية مَنْ لم يملك المال ليتصدق به ، ويُحْسِن إلى المحتاجين والمعوزين ، فعليه أن يتحسَّس حاجات المجتمع ، وينهض مندفعاً يؤدي واجباته ، ويستعدُّ لتنفيذ ما يُكلَّف به.

فعن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «على كل نفس في كل يوم طلعتْ فيه الشمسُ صدقة». قلت: يارسولَ الله ، من أين أتصدَّق ،

---

(١) رواه البخاري (١٤٤٥) ومسلم (١٠٠٨).

وليس لنا أموال؟!. قال: «مِنْ أبواب الصدقة: التكبير، وسبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، وأستغفر الله. وتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتعزل الشوكة عن طريق الناس، والعَظْمَ، والحجرَ، وتهدي الأعمى، وتُسْمِع الأصمَّ والأبكمَ حتى يفقه، وتدلّ المستدلَّ على حاجةٍ له قد علمتَ مكانها، وتسعى بشدَّة ساقيك إلى اللهفان المستغيث، وترفع بشدَّة ذراعيك مع الضعيف. كلُّ ذلك من أبواب الصدقة منكَ على نَفْسِك»[1].

ولعلَّ القارىء الكريم يذكر قصَّة ذلك الصحابي؛ الذي جاء إلى رسول الله ﷺ يسأله مالاً، فرأى فيه فتوَّة، وشباباً، وقوَّة، فلم يُعْطه شيئاً، ودلَّه على عملٍ يقتاتُ منه، ويُطْعم عياله، وتتحسَّن أحوالُه المعيشية.

عن أنس بن مالك: أنَّ رجلاً من الأنصار جاء إلى النبي ﷺ يسألهُ، فقال: «لَكَ في بيتكَ شيء؟» قال: بلى، حِلْسٌ نَلْبَسُ بعضه، ونبْسُطُ بعضَه، وقَدَحٌ نشربُ فيه الماء. قال: «ائتني بهما». فأخذهما رسولُ الله ﷺ بيده، ثم قال: «مَنْ يشتري هذين؟» فقال رجل: أنا آخُذُهما بدرهم. قال: «مَنْ يزيدُ على درهم؟» ـ مرَّتين أو ثلاثاً ـ. قال رجلٌ: أنا آخذُهما بدرهمين. فأعطاهُما الأنصاريَّ، وقال: «اشْتَرِ بأحدهما طعاماً فانْبِذْهُ إلى أهلك، واشْتَرِ بالآخر قَدُوماً، فائتني به» ففعل، فأخذه رسولُ الله ﷺ، فَشَدَّ فيه عُوداً بيده، وقال: «اذْهَبْ فاحْتَطِبْ، ولا أراكَ خمسةَ عَشَرَ يوماً». فَجَعَل يَحتطبُ ويبيعُ، فجاء وقد أصاب عَشْرَةَ دراهم، فقال: «اشْتَرِ ببعضها طعاماً، وببعضها ثوباً». ثم قال: «هذا خيرٌ لكَ مِنْ أن تجيءَ والمسألةُ نُكْتَةٌ في وجهك يومَ القيامة. إنَّ المسألةَ لا تَصْلُحُ إلا لذي فَقْرٍ مُدْقِع، أو لذي غُرْمٍ مُفْظِع، أو دَمٍ مُوجِع»[2].

---

(١) رواه أحمد (٥/ ١٦٨ ـ ١٦٩).

(٢) رواه أبو داود (١٦٤١) وابن ماجه (٢١٩٨).

«حِلْس»: كساء يلي ظهر البعير، يُفْرَشُ تحت القتب. «انبذه»: أَلْقِه. «نكتة»: =

ويُذكّرنا هذا الحديثُ بما جرى مع مدرِّس التربية الإسلامية؛ في إحدى مدارس دمشق، إذ جاءه أحدُ الناس يطلب صدقةً، وحدَّثه بأحواله المعيشية السيئة، وكان ذاك المدرِّس حكيماً عاقلاً، إذِ استأجر عربة لبيع الفول المسلوق على أن يتمَّ دَفْع الأجرة بعد أسبوع من التأجير، وقال للسائل: هذه العربة، وهذه أدوات البيع، وهذا هو الفول اللازم عن اليوم الأول، وما عليك إلا أن تبيع وتأتيني مساء. وهكذا جرى الأمر. ولم تمْضِ إلاَّ مدة قليلة حتى اكتفى الرجلُ بعمله، وتحسَّنت أحوالُه، وسُرَّ أولادُه وزوجه، ودعوا للمدرِّس بالتوفيق.

هـ ـ حُسْن التصرُّف:

كلَّما قرأنا سيرة رسول الله ﷺ، وقرأنا عن تصرُّفاته الحسنة، وأخلاقه العظيمة، ازدادتْ محبتنا له ﷺ، ووجدنا أنَّ عظماء العالَم، وحكماءه، وعقلاءه، إن هم إلا نقطة في بحره، وغيضاً من فيضه، عليه أفضلُ الصلاة وأتمُّ السلام.

ويسرُّنا أن نشير هنا إلى وسيلةٍ تربوية نبوية، ملؤها الحكمة، وإهابها حسن التصرف، ومِنْ ذلك أنَّ النبيَّ ﷺ لما هاجر إلى المدينة المنوَّرة، استقبله المسلمون بفرح غامر، وحبور عميق، وكلٌّ منهم يطلب شرف نزوله ﷺ عنده. وكان ﷺ كلَّما دعاه أناسٌ من المسلمين للنزول في دارهم، وأمسكوا بزمام الناقة، خاطبهم بقوله: «خَلُّوا سبيلها فإنها مأمورة». حتى بركتِ الناقةُ أمام منزل أبي أيوب الأنصاري، فانصرف الناسُ راضين[1].

ولو اختار ﷺ النزول عند واحدٍ من الذين دعوه، لحزن الباقون، وامتعضوا، ووجدوا في نفوسهم وَجْداً كبيراً. ولكنها التربيةُ النبوية المتَّسمة بالحكمة والتعقُّل.

= نقطة. "مدقع": شديد. "دمع موجع": هو أن يتحمّل دية فيسعى فيها حتى يؤديها إلى أولياء المقتول، فإن لم يُؤدّها قُتِل المحتمل عنه، فيوجعه قتْله.

(١) السيرة النبوية (١/ ٤٩٤ ـ ٤٩٦).

وموقف آخر ذكره الصحابيُّ الجليلُ ابنُ عباس ، عن النبي ﷺ أنه قال: «عُرِضَتْ عليَّ الأممُ ، فرأيتُ النبيَّ ومعه الرُّهَيْط والنَّبيَّ ومعه الرجلُ والرَّجُلان ، والنبيَّ ليس معه أحد؛ إذْ رُفِع لي سَوَادٌ عظيم ، فظننتُ أنهم أمتي ، فقيل لي: هذا موسى وقومُه ، ولكنِ انظُرْ إلى الأفق ، فنظرتُ فإذا سَوَادٌ عظيمٌ ، فقيل لي: انظرْ إلى الأفق الآخر ، فإذا سَوَادٌ عظيم ، فقيل لي: هذه أُمَّتُكَ ، ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنَّة بغير حساب ولا عذاب». ثم نهض رسولُ الله ﷺ فدخل منزلَه ، فخاض الناسُ في أولئك الذين يدخلون الجنَّة بغير حساب ولا عذاب. فقال بعضُهم: فلعلَّهم الذين صحبوا رسولَ الله ﷺ. وقال بعضُهم: فلعلَّهم الذين وُلِدُوا في الإسلام ولم يُشْرِكُوا بالله. وَذَكَرُوا أشياء. فخرج عليهم رسولُ الله ﷺ فقال: «ما الذي تخُوضُون فيه؟» فأخبروه ، فقال: «هُمُ الذين لا يَرْقُون ، ولا يَسْتَرْقُون ، ولا يتطيَّرون ، وعلى ربِّهم يتوكلون». فقام عُكَّاشةُ بن مِحْصَن فقال: ادْعُ اللهَ أن يجعلني منهم ، فقال: «أنتَ منهم». ثم قام رجلٌ آخر ، فقال: ادْعُ اللهَ أن يجعلَني منهم ، فقال: «سَبَقَكَ بها عُكَّاشة»[1].

وفي جواب رسول الله ﷺ حكمة بالغة أرضتِ السائل ، وقطعتِ الطريقَ على غيره أن يسأل نَيْل تلك المرتبة. قال أبو العباس القرطبي: ولمَّا لم يكنْ عند القائم بعده من تلك الأحوال الشريفة ـ قوة اليقين ، وشدَّة الحرص على الخير ، والرغبة فيما عند الله سبحانه ـ ما كان عند عكاشة ، قال له: «سبقك بها عُكَّاشة». فلئلاَّ يطلب كلُّ مَنْ هنالك ما طَلَبه عُكَّاشة والرجل الآخر ، ويتسلسل الأمر ، فسدَّ رسولُ الله ﷺ الباب بما قال لعُكَّاشة[2].

وقال ابنُ بطال: معنى قوله: «سبقك» أي: إلى إحراز هذه الصفات ،

---

(١) رواه البخاري (٦٥٤١) ومسلم (٢٢٠).
«سواد عظيم»: أشخاص كثيرة.
(٢) المفهم (١/ ٤٦٩).

وهي: التوكل، وعدم التطير، وما ذُكر معه، وعَدَل عن قوله: لستَ منهم، أو لستَ على أخلاقهم؛ تلطُّفاً بأصحابه ﷺ وحُسْن أدبه معهم.

وقال ابنُ الجوزي: يظهرُ لي أنَّ الأول سأل عن صِدْق قلبٍ فأُجيب، وأما الثاني فيحتمل أن يكون أريد به حَسْم المادة، فلو قال للثاني نعم؛ لأوشك أن يقوم ثالث ورابع إلى ما لا نهاية، وليس كلُّ الناس يصلح لذلك[1].

ونستطيع أن نشير إلى حِكْمته ﷺ، وحُسْن تصرُّفه، وتذكيره الآخرين بضرورة الالتزام بالحلم، والرفق ولو مع الكُفَّار!

فعن أسماء بنت أبي بكر قالت: قلتُ: يا رسول الله، إنَّ أمي قَدِمَتْ عليَّ وهي راغبةٌ أو راهِبةٌ، أَفَأَصِلُها؟ قال: «نَعَمْ، صِلِي أُمَّكِ»[2].

كما أنَّ عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أرسل هديةً إلى أخيه من أمه عثمان بن حكيم، وكان مشركاً، ولم يُنكر عليه رسولُ الله ﷺ.

فعن عبد الله بن عمر: أنَّ عمر بن الخطاب رأى حُلَّة سِيرَاء عند باب المسجد فقال: يا رسولَ الله، لو اشتريتَ هذه فلبستها يوم الجمعة وللوَفْد إذا قَدِمُوا عليك، فقال رسول الله ﷺ: «إنما يَلْبَسُ هذه مَنْ لا خَلاَقَ له في الآخرة». ثم جاءت رسول الله ﷺ منها حُلَلٌ، فأعطى عمرَ بنَ الخطاب ـ رضي الله عنه ـ منها حُلَّةً، فقال عمر: يا رسولَ الله، كَسَوْتَنِيها وقد قُلْتَ في حُلَّةِ عُطارِدٍ ما قلتَ؟! قال رسولُ الله ﷺ: «إني لم أكْسُكَها لِتَلْبَسَها»[3]. فكساها عمرُ بن الخطاب أخاً له بمكة مُشْرِكاً.

---

(١) فتح الباري (١١/ ٤١٢).

(٢) رواه البخاري (٥٩٧٩) ومسلم (١٠٠٣).
«أمي»: هي قتيلة بنت عبد العزى العامرية. «راغبة»: أي: راغبة عن الإسلام، كارهة فيه.

(٣) رواه البخاري (٨٨٦) ومسلم (٢٠٦٨).
«سيراء»: مخططة بالحرير. «عطارد»: هو ابن حاجب التميمي، صاحب الحلَّة.

وفي الحديثين السابقين جواز صِلة ذوي القربى المشركين ، والإحسان إليهم؛ لعلَّ ذلك يكون سبباً لإسلامهم ، وهذا ما حَدَّث في الواقع إذ أسلمت والدةُ أسماء ، وعثمان أخو عمر. وهذه حكمة نبوية وحُسْن تصرُّف ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

* * *